الفصل الأول

الأدب الإسلامي

تعريفه. مفهومه. دلالته

صفحة بيضاء ١٨

ما الأدب الإسلامي؟

هذا السؤال الذي اختلف في الإجابة عنه بعض المهتمين بالأدب الإسلامي ونجم عن هذا الاختلاف اختلاف في وجهات النظر في كثير من القضايا منها:

- الفرق بين الأديب المسلم والأديبة المسلمة وبين الأديب الإسلامي والأديبة الإسلامية.
- موقف الأدب الإسلامي من النصوص الأدبية لأدباء مسلمين لا توافق التصور الإسلامي.
- موقف الأدب الإسلامي من النصوص الأدبية لأدباء غير مسلمين موافقة للتصور الإسلامي.
- موقف الأدب الإسلامي من المذاهب الأدبية الغربية.
- تحديد أسس تقويم النصوص الأدبية من منظور إسلامي.

لقد نجمت هذه القضايا وغيرها في رأيي، نتيجة فهم البعض للأدب الإسلامي فهما قاصراً خاطئاً، إذ قصره البعض على أنه أدب الحكم والمواعظ ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا مفهوم قاصر للأدب الإسلامي، لأن هذا الجانب يمثل جزئية في الأدب الإسلامي، ولا تمثله كله حتى نقصره عليه فقط صحيح أنه جانب جد هام ولكن الأدب الإسلامي أشمل وأوسع.

وهو في مجمله من أهم وسائل الدعوة لأنه ملتزم بالتصور الإسلامي للخالق جل شأنه والإنسان والكون والحياتين الدنيوية والأخروية مخاطباً العقول والقلوب والأحاسيس والمشاعر وكل عرق ينبض في جسد الإنسان، أمَّا البعض الآخر فلقد جنح عن الأدب الإسلامي وهاجم مساندیه بدعوى أن الأدب الإسلامي يقابله أدب غير إسلامي، وبالتالي يكفر الأديب الذي لم يلتزم بالأدب الإسلامي، وليبرر صحة اعتراضه على مصطلح الأدب الإسلامي ينسب إلى الإسلام إقراره لمذهبي الفن للفن والمذهب السريالي "اللاوعي"، والشعر الإباحي مدعياً أن العلماء رددوه في المساجد وأن المفسرين دونوه في كتب التفسير، وبعضهم دعا إلى الأخذ بالمذاهب الغربية ظناً منه أنه بهذا يوسع دائرة الفكر الإسلامي ويكسبه رضا خصومه ويدفعه إلى العالمية. وبعضهم اعتبر الأدب الإسلامي كل ما يكتبه الأديب المسلم أياً كان مضمونه، وهو بهذا أقر باسم الإسلام الواقعية الاشتراكية والوجودية الملحدة وجميع المذاهب الأدبية الغربية التي غلبت على أدب الأمة الإسلامية.

مفهوم الأدب الإسلامي:

وأتساءل هنا: علام الاختلاف حول مفهوم الأدب الإسلامي مع أن القرآن الكريم والسنة النبوية أوضحا لنا هذا المفهوم وحددا معالمه وموقفهما من الأدب الماجن والأدب الذي يخالف نظرة الإسلام للخالق جلّ شأنه والإنسان والكون والحياة؟

فلنقرأ معاً قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ**

مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٤ – ٢٧]

ففي هذه الآيات الكريمات صنف الله عزّ وجلّ الكلمة إلى صنفين:

١- الصنف الأول هو الكلمة الطيبة، وشبهها بالشجرة الطيبة التي تؤتي بثمار طيبة كل حين، وذات جذور ثابتة لا تزعزعها الأعاصير العاتية، ووصف أصحابها "بالمؤمنين" الذين يثبتهم الله على قول الحق ونصرته، وهذا القول الحق يثبتهم عليه في الدنيا والآخرة لأنه نابع من عقيدة ثابتة مؤمنة عميقة الإيمان بالله وحده إلهاً ورباً، وهذا الإيمان منهج حياة كامل لا مجرد عقيدة تغمر الضمير.

٢- أما الصنف الثاني فهو الكلمة الخبيثة، والتي شبهها بالشجرة الخبيثة، وهي كلمة الباطل، وهي شجرة نافشة هشة، وإن كانت تبدو أضخم من الشجرة الطيبة، ولكن تظل جذورها في التربة قريبة كأنها على وجه الأرض،وما هي إلاّ فترة ثم تجتث من فوق الأرض فلا قرار لها ولا بقاء، وهذه حال الكلمة الخبيثة؛ أما البقاء والثبات فهو للكلمة الطيبة،كلمة الحق وقد وصف الله أصحاب الكلمة الخبيثة "بالظالمين"؛ يضلهم الله بظلمهم وشركهم واضطرابهم في تيه الظلمات والأوهام والخرافات وإتباعهم مناهج وشرائع من الهوى هي ليست من عند الله.

تعريف الأدب الإسلامي:

"الأدب الإسلامي هو التعبير الفني الهادف بالكلمة عن الخالق جلّ شأنه والإنسان والكون والحياة وفق التصور الإسلامي".

والمراد بفنية التعبير جماله وروعته، ولا غرو فإشراق العبارة وجمالها شرطان أساسيان لازمان لكل أدب، فكيف إذا كان إسلامياً نابعاً من كتاب الله متأسياً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

أما الاشتراط في هذا الأدب أن يكون هادفاً لأن أفعال المسلم وأقواله مصونة عن اللغو والعبث، بعيدة عمّا لا طائل تحته. وعلى هذا فالأدب الإسلامي لا يكتفي بجمال التعبير وإبداع التصوير، وإنما اشترط أن يجمع بين المتعة والفائدة معاً.

ثمّ إنّ موضوع هذا الأدب رحب الآفاق، متعدد الجوانب، فهو يشمل الإنسان بعواطفه وأشواقه، وآماله وآلامه، وحسناته وسيئاته، ودنياه وآخرته، كما يشمل الحياة بكل ما فيها من سعادة وشقاء، ومقومات وقيم، وهو يشتمل على الكون بره وبحره، وأرضه وسمائه، كما يشتمل على الطبيعة بطيرها السابح، وحيوانها السارح، وربيعها الجميل، وشتائها العاصف، وما إلى ذلك.

وهكذا نجد الأدب الإسلامي ليس مقصوراً على الموضوعات الدينية -كم يعتقد الكثيرون - وإنما هو أعم من ذلك وأشمل.

فهذا التعريف للأدب الإسلامي يحسم جميع نقاط الخلاف في المفاهيم لأن به تحددت معالم هذا الأدب وموضوعاته وخصائصه ومكوناته مضموناً وشكلاً،كما تحددت به أسس تقويمه، وحدد هذا التعريف أيضا موقف الأدب الإسلامي من المذاهب الأدبية الغربية، وكذلك من أدب الأدباء المسلمين الذي يخالف التصور الإسلامي، وأدب الأدباء غير المسلمين والذي يوافق التصور الإسلامي، فنطلق على الأول مخالفاً للتصور الإسلامي دون تكفير صاحبه لأن

التعريف لم يتطرق إلى عقيدة الأديب ودينه، بينما نطلق على الثاني موافقاً للتصور الإسلامي.

الفرق بين الأديب الإسلامي والأديبة الإسلامية وبين الأديب المسلم والأديبة المسلمة:

مما سبق يتضح لنا أنّ ليس كل ما يكتبه الأديب المسلم والأديبة المسلمة يعد أدباً إسلامياً مالم يلتزم صاحبه بالتصور الإسلامي ولا يخالفه. فالأديب الإسلامي والأديبة الإسلامية هما اللذان يلتزمان بالتصور الإسلامي في أدبهما، أمّا الأديب المسلم والأديبة المسلمة فهما يؤمنان بالإسلام ديناً وعقيدة، ولكن لتأثرهما بالمذاهب الأدبية والفكرية الغربية أخذا بها على عللها وعلاتها بما فيها من كفر وإلحاد، وكما ستبين لنا من النماذج الشعرية التي سأذكرها لأدونيس وصلاح عبد الصبور وأمل دنقل فيها تجرؤ على الذات الإلهية وإلحاد ووثنية فمثل ذاك الشعر لا يعد شعراً إسلامياً بأية حال من الأحوال، لأن تصنيفه في زمرة الشعر الإسلامي يعني إقرار الإسلام بكل ما فيه من كفر وإلحاد، وهذا يتنافى مع عقيدة التوحيد التي يقوم عليها الإسلام، وإن كان شعراؤه مسلمون.

من هنا يتضح لنا سبب إيجاد مصطلح الأديب الإسلامي والأديبة الإسلامية، وذلك للتفريق بين أدب المسلمين الملتزمين بالتصور الإسلامي وبين المخالفين له، إذ كيف نعتبر أدباً إسلامياً ذاك الأدب الذي يتجرأ فيه صاحبه على الذات الإلهية، وينظر إلى الإنسان نظرة مادية بحتة، ويأخذ بالحرية الوجودية المطلقة، ويقول بعبثية الخلق، أو يقول بالحلولية والتناسخ، أو قد يكتب أدبا إباحيا مكشوفا كشعر نزار قباني وأدونيس، وكقصص إحسان

عبد لقدوس، ونوال السعداوي، و يوسف إدريس وغيرهم كثير من شعراء وروائيين وقصاصين، فهم مسلمون وليس من حقنا أن نطعن في عقائدهم أو نكفرهم ونخرجهم من الملة الإسلامية ماداموا ينطقون بالشهادتين،ولكن.. لا نعتبر أدبهم أدباً إسلامياً.

الالتزام في الأدب والفرق بينه وبين الإلزام:

الالتزام في اللغة هو "التعلق وعدم المفارقة " حيث يقال: التزم فلاناً، والتزم الأمر أي تعلق به ولم يفارقه.

والالتزام في اصطلاح الأدباء والنقاد: هو أن يلتزم الأديب في كل ما يصدر عنه من أدب فكراً محدداً من الأفكار، أو عقيدة من القائد، أو نظرية من النظريات، أو فلسفة من الفلسفات سواءً كان ما يلتزم به دينياً، أم سياسياً، أم اجتماعياً، أم نحو ذلك،بحيث يكون أدبه نابعاً مما اعتقده.

والفرق بين الإلزام والالتزام أن الإلزام يأتي من الخارج، والالتزام ينبع من الداخل، لذا فإنّ الإلزام فيه معنى القسر والقهر والإكراه،بينما الالتزام فيه معنى الرغبة والتعلق والطواعية، والإلزام كثيراً ما يكون ضد الطبع، بينما الالتزام ابن الطبع.

الفرق بين الالتزام في الأدب الإسلامي وبينه في الآداب الأخرى:

لو بحثنا في الفرق بين الالتزام في الأدب الإسلامي وبين الآداب الأخرى كالماركسية والوجودية مثلا نجد الآتي:

أنّ الأديب الماركسي ملزم وليس بملتزم، لأن التزامه مفروض عليه من قبل السلطة الحاكمة التي تدفعه إليه بالترغيب والترهيب، لأن النظام الشيوعي كما وضع يده على وسائل الإنتاج المادي، فقد وضع يده على وسائل الإنتاج المعنوي، بوضع يده على الأدباء، وما يبدعونه من أدب، وألزمهم إلزاماً بأن يكون محور كتاباتهم وأقوالهم العقيدة الشيوعية الماركسية وخدمة أهدافها، ومن ثمّ فقد حرّم على كل أديب أن ينتج أي لون من ألوان الأدب يعارض المذهب الذي اعتنقته الدولة وارتضته للشعب، وذلك لأنها وصية عليه، مسؤولة عن توجيهه وتثقيفه وحمايته من الأفكار الضارة من وجهة نظرهم، وبذلك عدّ الأديب المعارض للعقيدة الماركسية خائناً لأمته وقضاياها منحازاً إلى أعدائها.

أمّا مفهوم الالتزام عند الوجوديين مختلف أشد الاختلاف عن مفهومه لدى الشيوعيين أو أصحاب "المذهب الواقعي الاشتراكي". فدعاة الواقعية الاشتراكية تقوم فلسفتهم في الالتزام على الدفاع عن مبادئ الدولة السياسية والاجتماعية والاقتصادية سواءً آمن بها الأديب أم لم يؤمن.

أما الالتزام لدى الوجوديين فيقوم على القناعة النابعة من ذات الأديب. ومن هنا كان له مطلق الحرية في أن يختار الموقف الذي يطمئن إليه، وأن يلتزم به، وأن يجعل نفسه مسؤولة عنه أمام نفسه، ذلك لأن الوجوديين يدينون بأن الحقيقة الوحيدة عند الإنسان إنما تنحصر في تفكير الفرد نفسه، وأنَّه لا يوجد شيء خارج عن هذا التفكير، وبالتالي فإنه لا يوجد في زعمهم إله، بل إنهم يوغلون في ذلك أشد الإيغال، فينادون بأن الإله ليس خرافة نافعة -كما ذهب فولتير- وإنما هو خرافة ضارة يجب على الإنسانية أن تتخلص منها حتى تستطيع ممارسة وجودها، وتحقيق هذا الوجود.

أما التزام الأديب الإسلامي فهو نابع من أعماق نفسه، ويعد مقوماً من مقومات وجوده، ثابت عليه لا يتزعزع عنه مهما كثرت المحاولات لصرفه عنه لأن ما ألزم به نفسه جزء لا يتجزأ من عقيدته، وعقيدة الإنسان المسلم المؤمن حق الإيمان يرخص كل غال ونفيس في سبيل الحفاظ عليها، فالأديب المسلم ملتزم أمام الله المتصف بصفات الكمال، المنزه عن كل نقص، ثمّ إنّ الأديب الإسلامي ملتزم بشريعة مقررة ثابتة، ومثل محددة واضحة لم يبتدعها من عند نفسه ابتداعاً.

فالفروق شاسعة وبينة بين الالتزام في الأدب الإسلامي وبين الآداب الأخرى؛ فمثلاً نجد الالتزام المنبثق عن المذهب الواقعي الاشتراكي قد حال دون الأديب ودون التعبير عن ذاته، وصرفه عن بثّ نجواه والبوح بعواطفه الذاتية التي هي صدى أفراحه وأحزانه، لأن الأديب الماركسي لا يعد ملتزماً إلاّ إذا اتسم أدبه بالواقعية ولا يكون واقعياً إلاّ إذا آمن بأن الابتكار الفني إنما ينبع من التزام الأديب بمبادئ الشيوعية،أي إلغاء شخصية الأديب، بل ذاته وكيانه وأحاسيسه ومشاعره وآلامه وآماله وطموحاته، وبمعنى آخر جعلت منه آلة لا تحس ولا تشعر، أي ألغت الجانب الروحي في الإنسان، فمذهبها يمثل نظرتها للإنسان، والإنسان في منظورها مادة فقط.

أما الالتزام في الأدب الإسلامي فلم يحجر على عواطف الإنسان وأحاسيسه ومشاعره، وما يطرقه من موضوعات، لأنه يمثل نظرة الإسلام إلى الإنسان تلك النظرة المتوازنة التي جمعت بين المادة والروح، فلم يبخس للروح حقاً، ولم يبخس للجسد حقاً، ولعل الفروق ستتضح لنا أكثر عندما نستعيد معا نظرة الإسلام إلى الخالق جلّ شأنه وإلى الإنسان والكون والحياة، ونظرة المذاهب الأخرى.

موقف الأدب لإسلامي من المذاهب الأدبية الغربية:

بعدما اتضحت أمامنا نظرة الإسلام إلى الخالق جلّ شأنه وللإنسان والكون والحياة، وبعدما اتضح لنا نظرة المذاهب الغربية الفكرية والأدبية إلى الخالق جل شأنه وإلى الإنسان والكون والحياة، أصبح موقف الأدب الإسلامي منها واضحاً، وهو ألاّ نأخذها على علاتها كما فعل معظم أدبائنا وشعرائنا، فما يمس ديننا وعقيدتنا وقيمنا ومبادئنا وأخلاقياتنا الإسلامية نتركه، بل نرفضه، وهذا الموقف الذي ينبغي أن نلتزم به في كل أمور حياتنا، في ملبسنا، ومشربنا، ومأكلنا ومعاشنا وسلوكياتنا، فلا ننبهر بكل ما يأتينا من الغرب وحضارته، وإنما نأخذ منهم ما ينجزه التقدم العلمي والتكنولوجي الموافق لديننا -، فلا نأخذ مثلا بالاستنساخ، أو استئجار الأرحام - نأخذ منها ما يتعلق بالأمور المادية، أما ما يتعلق بأمور الدين والعقيدة والقيم والأخلاق فلنكن حذرين ويقظين وواعين ، وباختصار علينا ألاّ نأخذ إلاّ ما يتفق مع ديننا.

هذا وأنا لا أتفق مع من دعا إلى الأخذ بالمذاهب الغربية ظناً منه أنه بهذا يوسع دائرة الفكر الإسلامي، ويكسبه رضا خصومه ويدفعه إلى العالمية.

خصائص الأدب الإسلامي:

للأدب الإسلامي خصائص تميزه عن سائر الآداب الأخرى يمكن إيجازها في الآتي:

١- أنه أدب شامل يمثل نظرة الإسلام الشاملة لله سبحانه وتعالى، والإنسان والكون والحياة، فهو ليس بأدب الحكم والمواعظ والمآثر الإسلامية فقط

- كما تعتقد الغالبية العظمى-، وإنّما هو أدب عالمي العالمية الإسلام، شامل لشمولية الإسلام، ومواطن الإبداع فيه تفوق مجالات الإبداع جميعها في غيره من الآداب، لأنه إبداع قوامه الإيمان بالخالق الواحد الأحد، والسمو فيه لا يعادله سمو لأنه سمو الإسلام، وجماله لا يماثله جمال لأنه يفوح بعطر الإيمان.

٢- أنه أدب هادف، ذلك أنّ الأديب الإسلامي لا يجعل الأدب غاية لذاته كما يدعي أصحاب مذهب "الفن للفن"، وإنما يجعله وسيلة إلى غاية. وغايته ترسيخ الإيمان بالله عزّ وجل في الصدور، وتأصيل القيم الفاضلة في النفوس، وتفجير ما يكمن في الذات الإنسانية من طاقات الخير والصلاح، وكبح جماح الشهوات، وتوجيهها الوجهة الشرعية بحيث لا يكبتها ولا يطلق لها العنان، وإنما يضبطها فلا تخرج عن دائرة الحلال، ويسمو بالعواطف الإنسانية إلى مراتب عليا من الطهر والعفاف.

٣- أنه أدب ملتزم ولكن التزامه يغاير التزام الواقعية الاشتراكية والوجودية فهو التزام بالإسلام وقيمه، وتصوراته، وتقيد بمبادئه وغاياته.

٤- أنه أدب أصيل، وتتجلى أصالته في أخذ الأديب كل ما هو أصيل من خصائص أمته، وصفاتها، وقيمها ومثلها. أنه أدب متكامل، ولا يتم هذا التكامل إلاّ بتآزر المضمون والشكل معا، ذلك لأن المضمون وحده لا يمس المشاعر والأفئدة، إذا لم يقدم في قالب أدبي بديع، وصيغ بأسلوب راق جميل، ولغة قوية ثرية بليغة.

٥- أنه أدب مستقل تظهر فيه الشخصية الإسلامية بكل مقوماتها، وليست شخصية ممسوخة مقلدة لغيرها كما هي حال الكثير من أدبائنا، إذ طبع أدبهم بالطابع الغربي بشكل واضح، من ذلك تجرؤ بعضهم على الذات الإلهية، وغلبت على أدب بعضهم الإباحية، وهذا يتنافى مع ما تتحلى به الشخصية الإسلامية. ولعل الشاعر حسّان بن ثابت رضي الله عنه يعطينا خير مثل على هذه الشخصية الإسلامية المستقلة حين عمل على أن يتخلص من الشخصية الجاهلية، واستبدلها بالشخصية الإسلامية.